اللِّواء محمَّد صادق باشا

(١٨٢٢ - ١٩٠٢م)

لم يكن من السَّهل تتبع سيرة محمَّد صادق باشا؛ فالمراجع المتوفرة لدينا لم تكف الرجل حقَّه بالقدر الذي سعيت إليه حتى أقدم ترجمة ذآتية عنه تكون وافية بالقدر الذي نريد، إلا أنها تجمع على كونه كما جاء في مؤلفاته مهندس، ضابط، وجغرافي مصري، هذا الرجل الذي عاش ثمانين عامًا قُدِّر له أن يكون من رحالة الأراضي الحجازيَّة التي جاءها في النصف الثَّاني من القرن التَّاسع عشر (١٢٧٧هـ - ١٨٦٠م) ليسجِّل اسمه في قائمة رحالة ومستكشفي شبه الجزيرة العربيَّة، لكنه لم ينل الشَّهرة التي نالها غيره من الرحَّالة الغربيِّين، على الرغم من النتائج الجغرافيَّة الهامَّة التي أحرزها في وصف طريق الحج والأماكن المقدَّسة وفقًا لمنهج علمي غاية في الدِّقة.

محمَّد صادق عضو البعثة العلميَّة:

ولد محمَّد صادق عام ١٨٢٢ في القاهرة، وتلقَّى علومه الأساسيَّة في مدارسها إلى أن التحق بمدرسة «الخانكاه» الحربيَّة التي برز فيها نبوغه العسكري، ثم انتخب للسَّفر إلى فرنسا بين أفراد بعثة الجيش الرَّابعة التي اختارها القائد سليمان باشا الفرنساوي[1] عام ١٨٤٤م؛ ليلتحق بالمدرسة الحربيَّة المصريَّة في باريس، تحت إدارة اسطفان بك، مع الفوج الثَّاني الذي ضمَّ أربعة أمراء منهم اثنان من أبناء محمَّد علي وهما الأمير عبد الحليم والأمير حسين، واثنان من أبناء إبراهيم باشا وهما (الخديوي) إسماعيل والأمير أحمد، ولما تخرَّج منها دخل مدارس التطبيقات الحربيَّة

(١) إبراهيم مصطفى الوليلي: مفاخر الأجيال في سير أعاظم الرجال، ص١٩.

(البولتكنيك) التي تعلم فيها تقنيات الرَّسم والزخارف، واطلع بوجه عام على جوانب هامَّة من النهضة العلميَّة، وعلى وجه الخصوص في مجال العلوم التطبيقيَّة، بفرنسا في ذلك الوقت، وبعد أن أتمَّ علومه عاد إلى مصر، وكان ذلك في عهد سعيد باشا، فعيِّن مدرسًا للرسم في المدرسة الحربيَّة بالقلعة، تحت نظارة العلامة الشَّهير رفاعة بك الطَّهطاوي.(١)

الرِّحلة إلى الأراضي الحجازيَّة:

قام محمَّد صادق بزيارة الأراضي الحجازيَّة عدَّة مرات، استهلَّها بزيارته الأولى للمدينة وكانت عام ١٢٧٧هـ الموافق لسنة ١٨٦٠م بمعيَّة الوالي سعيد باشا، أتبعها بزيارة ثانية للمدينة أيضًا عام ١٨٦١م، وسجَّلها في كتابه «نبذة في استكشاف طريق الأرض الحجازيَّة»، والثَّانية والثَّالثة عامي ١٨٨٠م، ١٨٨٤م، وكانتا بقصد أداء فريضة الحج، عندما كان أمينًا لصرَّة المحمل، وسجَّل وقائعهما في كتابيه «مشعل المحمل، وكوكب الحج»، أما الرِّحلة الرَّابعة فكانت مهمَّة رسميَّة بقصد تسليم قمح صدقتي مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة بجدَّة عام ١٨٨٥م وجاء ذكرها في ذيل كتابه «كوكب الحج».

وفي هذه الرِّحلات، تزوَّد بالأجهزة العلميَّة التي أعانته في تسجيل البيانات، ورسم الخرائط، وتعيين المحطَّات، وذكر أسماء النَّباتات وأنواع الصخور والجبال وطبيعة الأرض بشكل عام، فأضافت هذه المؤلَّفات العديد من المعلومات الجغرافيَّة القيِّمة في تاريخ الكشف الجغرافي للحجاز.

---

(١) أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٦١١.

الرِّحلة الأولى:

في عام ١٢٧٧هـ الموافق لسنة ١٨٦٠ رافق الوالي محمَّد سعيد باشا في رحلته إلى الأقطار الحجازيَّة، وزار المدينة المنوَّرة، ورسم خريطة من الوجه إلى المدينة المنوَّرة مبينًا فيها معالم الطَّريق، وكيفيَّة المحطَّات ومحلات الزِّيارات[١] وألَّف كتابًا عنها طبع بمطبعة عموم أركان الحرب بديوان الجهاديَّة المصريَّة، ونشر عام ١٢٩٤هـ الموافق لسنة ١٨٧٧ تحت عنوان: «نبذة في استكشاف طريق الأرض الحجازيَّة من الوجه وينبع البحر إلى المدينة النَّبوية، وبيان خريطتها العسكريَّة لحضرة محمَّد صادق بك قائمقام أركان حرب».

وذكر فيه معالم هذا الطَّريق ومسافاته المتريَّة بدقة لم يسبقه إليها أحد، (وكانت تلك الزِّيارة مقدِّمة لرحلته العلميَّة التي اضطلع بها في العام التَّالي ١٨٦١)، وقدَّم عنها تقريرًا اشتمل على معلومات جغرافيَّة هامَّة مستفيدًا ببعض المعدات، وأجهزة القياس ذكر منها آلة قياس تسمَّى (هكتومتر) تستخدم في القياسات المتريَّة (مئة متر)، وآلة (البوصلة) تستخدم في تحديد الاتجاهات بالإضافة إلى جهاز جديد لم يمض على اختراعه أكثر من عشرين عامًا، وكان هذا الجهاز الضَّخم عبارة عن آلة تصوير ضخمة (كاميرا) تعمل بطريقة اللَّوحات المبتلة[٢]، فأدَّى لحركة الاستكشاف الجغرافي خدمة لا ينساها له علم الجغرافيا الحديث، بالإضافة إلى ما قدَّمه من معلومات مستفيضة للأماكن المقدَّسة، ووصف شعائر الحج وصفًا بليغًا، وما لها من الأدعية والمآثر المشهورة.

---

(١) عمر طوسون: البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد، ص٣٠.

(٢) وليام فيسي وجليان غرانت: المملكة العربية السعودية في عيون أوائل المصورين، ص١٨.

الهدف من الرِّحلة:

يختلف المؤرِّخون في غايته الحقيقيَّة من تلك الرِّحلات فهناك من يعتبره قد قام برحلاته لتحقيق بعض الأغراض العسكريَّة، وأهمها انتخاب أوفق الأماكن لمبيت الجند، وتعيين مواقع المحطَّات المختلفة على الطَّريق[١]، وذلك بقصد إجراء مسح عسكري للمنطقة الممتدَّة بين الوجه والمدينة المنوَّرة[٢]، والذي يتتبع وصفه لتلك الأماكن ومواقع المحطَّات التي أوردها في هذا الكتاب واللُّغة التي كتب بها، يتفق إلى حد ما مع هذا الرأي فهو يقول في مقدِّمة كتابه «نبذة في استكشاف طريق الأرض الحجازيَّة» بلغة تقارير العسكريين التي تتسم بالإيجاز الشديد، وتهتم بالمعلومات البيانيَّة والتفاصيل الدقيقة، كما يظهر فيه اعتناءه، وحرصه على ذكر التَّوقيت بالسَّاعة والدَّقيقة:

«وفي السَّاعة الثَّالثة وعشرة دقائق من يوم السَّبت ثاني عشرين من الشَّهر، سرنا ودخلنا طريقًا أقل عرضه عشرين مترًا، وعلى مسيرة ثلاثة آلاف وخمسمائة متر صخرة حجر أحمر في وسط الطَّريق تمر الجمال من طرفيها، ويضيق الطَّريق بسببها، ثلاثة آلاف متر منها صخور وأحجار إلى ألف وخمسمائة متر، ثم يبدو طريق به أشجار محدقة وأحجار مفرقة متكونة من طبقات متفتتة من كثرة الحرارة والأمطار».[٣]

وهكذا يستمر الوصف، يذكر الزمن بالدَّقائق والمسافات بالأمتار، ومعالم الأماكن بلغة دقيقة لا تخلو من البلاغة المتعمدة؛ فقد كان ذا ميل خاص إلى الأدب

(١) عبد الرحمن زكي: إعلام الجيش والبحرية في مصر، ص١٦٠.
(٢) بدر الحاج، صور من الماضي، ص١٢.
(٣) محمد صادق: نبذة في استكشاف طريق الأرض الحجازية، ص٧.

العربي نثرًا ونظمًا[١] وهو أسلوب القرن التَّاسع عشر حيث كان الكاتب ينتقي المفردة انتقاءً، ويرص الكلمات رصًّا جميلًا، بين الفصيح والدَّارج، ويكشف لنا عن غايته عندما يقول:

«تركت ذكر الأدعية التي تقام في الزِّيارات خوفًا من الإطالة؛ إذ المقصد هنا ذكر الاستكشافات العسكريَّة، واللوازم السَّفريَّة، وتشخيص الأماكن والمناخات وتعين الطرق والمحطَّات».[٢]

الرِّحلة الثَّانية: مشعل المحمل في سفر الحج برًّا سنة ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م

بعد أن عُيِّن محمَّد صادق أمينًا للصرة سنة ١٨٨٠ عاد في سبتمبر من نفس العام مرة ثانية إلى الأراضي الحجازيَّة على رأس المحمل المصري؛ ليقدِّم لنا وصفًا غاية في الدِّقة لرحلة المحمل المصري، منذ بدء مسيرة المحمل في يوم الاثنين ٢٢ محرم سنة ١٢٩٧ هجريَّة الموافق لتاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٠ مسيحيَّة[٣] عندما تهيَّأ محفل المحمل الشَّريف للانطلاق إلى السُّويس، وحتى عودته إليها في يوم الخميس ٢٦ صفر، كما قدَّم وصفًا لكيفيَّة الحج ومعالم الطَّريق بات يحتذى من بعده، وقد وصف رحلة الحج هذه في كتابه «مشعل المحمل في سفر الحج برًّا» التي عبر عنها في مقدِّمة الكتاب السَّيد أحمد البرزخي وكيل مفتي الشَّافعيَّة، وخادم العلم بالرَّوضة النَّبوية بقوله:

(أما بعد) فلمَّا كان عام ألف ومائتين وسبع وتسعين من الهجرة النَّبوية على

(١) عمر طوسون: مصدر سابق ص٣٠٢.

(٢) محمد صادق باشا: نبذة في استكشاف طريق الأرض الحجازية، ص١٧.

(٣) ٢٢ محرم ١٢٩٧هـ، يوافق ٥ يناير ١٨٨٠م حسب التوفيقات الإلهامية، وهو الأرجح.

صاحبها أفضل الصَّلاة وأزكى التَّحيَّة عند وفود موكب المحمل المصري لأداء سنَّة زيارة حرم خير الأنام عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام بعد الفراغ من النسك والمشاعر العظام تشرفنا بلقاء أمين صرته الشَّريفة ذي الشَّمائل الظَّريفة، والمعارف الجمَّة، والفكرة الثَّاقبة، والغيرة والهمَّة، حضرة عزتلو أفندم محمَّد بك صادق ذي التَّدقيق الفائق، فعند التَّملي بحسن لقائه، والاقتباس من نور سنائه أطلعنا على رسالة رحلته المحتوية على جمل وتفاريق سفرته، فوجدناها رسالة بديعة البيان، كاملة الحسن والإحسان، جليلة المعاني جميلة المباني، قد أحرزت من كل فنٍّ أحسنه، ومن كل علمٍ أتقنه، فيما يتعلَّق بالحرمين المحترمين، والبلدين المعظَّمين، مما لا يفرق معه بين العين والأثر، ويجعل الخبر كالعيان والعيان كالخبر، وتفيده من فنِّ الجغرافيا لطائف النُّكات من وصف الأرض وقطعها المتجاورات المختلفة الألوان والشيات، وتوضح له بأبدع نظام ومهمات مسائل الحج والإحرام، وكيفيَّة أداء المناسك المطلوبة والمشارع العظام المرغوبة، وتشير له إلى حكمة تشريع تلك العبادات وأسرارها الخفيَّة، ومحاسنها ومزاياها المطويَّة، إلى تنبيهات من علم التَّصوف شافية، وإرشادات مقتبسة من إشارات القوم كافية، وبالجملة فهي حريَّة بأن تدعى مرآة العجائب ومعرض الغرائب، قد احتوت على نوادر الغرر ونفائس الدرر، وعلى أصولٍ لطيفة التَّأسيس أبهج من أجنحة الطَّواويس، فليتخذه المطالع علمًا يهتدى به وإمامًا يقتدى به، فيا لها من طرائف ظرائف، تصقل الأذهان وتزدهي حسنًا على سوالف الغزلان، فلا زال جامعها مرتقيًا في معارج المعالي، زينة في صدور المحافل مدى الأيام واللَّيالي، موفور السعد والإقبال، متشرفًا بين الأقران والأمثال.آمين».[1]

ويوجز محمَّد صادق غايته من الكتاب بقوله في ديباجة المقدِّمة:

(١) محمد صادق: مشعل المحمل، ص٢٠١.

«أما بعد، فيقول الفقير إلى مولاه محمَّد صادق بيك ميرالاي أركان حرب المصري: إني قد استخرت الله في أن أشرح ما شاهدته برًّا في طريق الحج الشَّريف من كل مأمن أو مخيف، وما هو جارٍ في كيفيَّة أداء هذه الفريضة الإسلاميَّة؛ ليكون دليلًا مختصرًا مفيدًا للأمَّة المحمَّديَّة، وخدمة لأبناء الوطن، ولم أذكر شيئًا بمجرَّد الظن، بل عوَّلت في الغالب على الاقتصار على ذكر الحسن وسمَّيته (بمشعل المحمل)، وعلى الله سبحانه وتعالى أتوكَّل، وإن وجد فيه شيء لا ينبغي أن يذكر؛ فإنما ذكرته أداءً لحقِّ الوظيفة، مع التَّلطيف ليكون قدوة ودليلًا لمن يتوظَّف من الآن، وليس الخبر كالعيان.

اعلموا وفقنا الله وإياكم لما فيه السَّداد، وهدانا إلى طريق الرَّشاد، إني قد تعيَّنت أمينًا لصرَّة الحج الشَّريف في طلعته سنة ١٢٩٧، وعودته سنة ١٢٩٨ هجريَّة، وكان سعادة عاكف باشا اللِّواء أميرًا على الحاج في هذا العام، ورئيس أورطني السواري حضرة عاطف بيك القائممقام».[١]

الرِّحلة الثَّالثة: كوكب الحج في سفر المحمل بحرًا وسيره برًّا (٢١ من ذي القعدة من شهور عام ١٣٠٢هـ) (الموافق لتاريخ ٣ سبتمبر ١٨٨٤م)

قام محمَّد صادق في سنة ١٨٨٤ برحلة حج ثالثة إلى مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة، والتي بدأت منذ استلام صرَّة المحمل في يوم الثُّلاثاء الموافق ٢١ من ذي القعدة من شهور عام ١٣٠٢هـ (الموافق لتاريخ ٣ سبتمبر ١٨٨٤م) متجهًا إلى السُّويس، ومنها إلى جدَّة عبر البحر الأحمر، إلى أن رست الباخرة أمام بوغاز جدَّة، فضربت الموسيقا والطبول والمدافع فرحًا بالوصول..لتبدأ رحلة المحمل برًّا متجهًا في الأراضي الحجازيَّة، وتبدأ معها رحلة زيارة المدينة التي يصفها بدقة لا تقل عن

(١) محمد صادق: مشعل المحمل، ص٤.

وصفه السَّابق في كتابيه السَّابقين، حتى يعود يوم الاثنين ١٦ ص بعد السَّاعة واحدة وربع؛ ليصل إلى محطَّة مصر بالعبَّاسيَّة.

وهذه الرِّسالة المسمَّاة (كوكب الحج) تصف المنازل والأماكن، فلا يكاد المرء في ذلك الوقت يحتاج في معرفتها عند مروره عليها إلى معرِّف ولا دليل؛ فهي تذكر قبائل العرب الحجازيَّة، وفصائلها، وأخلاق بعضها ومساكنها على وجه جميل، فهي على حدِّ قول مصحِّحها الشَّيخ محمَّد الحسيني:

«مهذبة المباني محررة المعاني، نميقة بنان الصُّنع الذي لا يقدر قدره ذكاء ونبلًا، وبنت فكر الهمام الذي لا يدرك شأوه رقة وفضلًا، الملحوظ بعين عناية مولاه الخالق حضرة محمَّد باشا صادق، على ذمَّة حضرته حفَّه الله، ومن كل سوء وقاه، في ظلِّ الحضرة الخديويَّة ..أفندينا محمَّد باشا توفيق أدام الله علينا أيامه، ووالى علينا إنعامه، وحفظ أنجاله الكرام، وجعلهم غرَّة في جبين اللَّيالي والأيام، وأدام لنا خيريه مدى الأعوام، وكان تمام طبعه، وبدو زهره وينعه في أوائل ذي القعدة الحرام من عام ثلاث بعد ثلاثمائة وألف من هجرته عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام، وعلى آله وصحبه البررة الكرام».[1]

الرِّحلة الرَّابعة: (مهمَّة تسليم قمح صدقتي مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة بجدَّة) ١٢ ربيع الأوَّل سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م

والتي قام بها في شهر (ربيع الأوَّل) سنة ١٣٠٢هـ عندما تعيَّن من قبل الماليَّة المصريَّة في مهمَّة تسليم قمح صدقتي مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة بجدَّة عن سنة ١٣٠٢هـ الموافقة لسنة ١٨٨٥ مسيحيَّة.

(١) كوكب الحج، ص٧٣.

ولقد أورد في الرِّسالة التي ذيَّل بها كتابه (كوكب الحج) تفاصيل التَّقرير الذي قدَّمه عن هذه المهمَّة، والذي تضمَّن مقدار هذه الصَّدقة، مع ذكر مراسم الاستقبال، وطريقة توزيع الصَّدقة، ويقول فيها:

«توجَّهت من السُّويس في ١٢ ربيع الأوَّل سنة ١٣٠٣هـ، ووصلت جدَّة في ١٦ منه صباحًا، ومنها توجَّهت إلى مكَّة ثاني يوم على حمير الأجرة بدون لجام ولا ركاب كما هي العادة في ظرف اثنتي عشرة ساعة، منها ساعة ونصف استراحة بالمحطَّات ..ثم يذكر تفاصيل لقائه مع والي الحجاز عثمان باشا نوري، وسعادة أمير مكَّة الشَّريف عون الرَّفيق ..ويتوجَّه لمكَّة ويشهد غسل الكعبة، ودعاء نصف شعبان، وأيامًا في شهر رمضان، ويعود مرَّة ثانية إلى جدَّة؛ لانتظار حضور الوابور من بومباي بقمح الصَّدقة».[١]

ويصف إجراءات تسليم وتسلُّم صدقة القمح قائلًا:

«وجرى إعمال المعدل بها بواسطة القادوس والكيل المصري بحضور قومسيون تشكَّل لذلك، يكون التَّسليم والتَّسلُّم للأهالي بموجبه، وتحرَّرت الشروط اللازمة عن ذلك، وعند انتهاء التَّسليم أعطيت السَّند اللازم إلى وكيل المتعهد بالمقدار الوارد بالشونة (مخزن الحبوب) كالأصول ..، وفي غرَّة ج سنة ١٣٠٣هـ ٦ مارس سنة ١٨٨٦م ركبت وابور البحر (الباخرة)، ووصلت إلى السُّويس، ثم وصلت إلى مصر ثاني يوم، وقدَّمت أوراق مأموريتي (مهمَّتي) إلى الماليَّة حسب الأصول، والطَّريقة الحسنة في تسلُّم قمح صدقتي مكَّة والمدينة».[٢]

---

(١) كوكب الحج، ص١٨.

(٢) كوكب الحج، ص٧١.

محمَّد صادق: المصوِّر الرَّائد

من حسن حظِّ محمَّد صادق بك أنه وخلال فترة بعثته في باريس كان قد حدث شيء من التقدُّم في مجال معالجة الصُّور الفوتوغرافيَّة، وسرعان ما انتشر هذا الاختراع الرَّائع الذي يعتمد على ما سمي بالكاميرا، وأنه بلا شك قد بهر بهذا الاختراع الجديد.

كما جاء إدخال هذه الآلة ضمن اتجاه محمَّد علي باشا في تحديث معدَّات الجيش المصري وتطويره، مواتيًا لرغبة صادق في استخدام هذه التقنية المتقدِّمة آنذاك، حتى أتقن استعمالها، واشتهر بين المؤرِّخين بأنه أوَّل من التقط صورًا فوتوغرافيَّة في المدينة المنوَّرة؛ ففي معرض حديثه عن الصُّور الأولى لمكَّة والمدينة المنوَّرة، يقول بدر الحاج:

«كانت معظم مناطق شبه الجزيرة العربيَّة مجهولة بالنِّسبة للمصوِّرين الأجانب، باستثناء بعض الصُّور لمدن جدَّة وعدن ومسقط والتي التقطت من قبل مصوِّرين كانوا في طريقهم إلى الهند، وعندما أصدر المهندس المصري الميرالاي أركان حرب محمَّد صادق بك أوَّل أعماله الفوتوغرافيَّة عن مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة لاقت هذه الأعمال إقبالًا شديدًا، ونشرت في شتى المجلات العربيَّة والأوروبيَّة».[1]

ويقول وليام فيسي: «يبدو أنَّ أول صورة شمسيَّة لسعوديَّة اليوم جرى التقاطها قبل نحو مئة عام من ذلك في عام ١٨٦١؛ ففي الواحد والعشرين من يناير كانون الثَّاني نزل عقيد مصري اسمه محمَّد صادق إلى برِّ ميناء الوجه الواقع على البحر

(١) بدر الحاج، صور من الماضي، ص١٢.

الأحمر في السَّاحل الشَّمالي للحجاز، كان الضَّابط النَّابه يحمل جهازًا نابهًا هو الآخر: كاميرا، أو آلة تصوير شمسي، التقط بها فيما زعم أنها أولى الصُّور الشَّمسيَّة لمسجد الرَّسول سيِّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم في المدينة المنوَّرة، وفي عام ١٨٨٠م عاد فصوَّر الحرم المكِّي الشَّريف، ومواقع أخرى يتصل سبيلها بالحج».(١)

أمَّا عن موهبته في فنِّ التَّصوير فتنفق جليان غرانت مع فيسي وبدر الحاج من قبله في أن محمَّد صادق كان ذا موهبة فذَّة، عندما تقول: «لا نعرف عن حياته إلا القليل باستثناء أنَّ موهبته في مجال التَّصوير الشَّمسي جرى اعتراف علني بها حين منح شهادة تقدير، وميدالية ذهبيَّة في مهرجاني البندقيَّة لعام ١٨٧٦م، ١٨٨١م، أمَّا في عام ١٨٨٧م فإنَّ الخديوي نفسه قد منحه ميدالية».(٢)

فقد ذكر صادق أنه منح ميدالية من الذَّهب، ومن الدَّرجة الأولى عام ١٨٨١م عن هذا العمل الرَّائد عندما يقول: «وقد تيَّسر لي في سفري سنة ١٢٩٧ هجريَّة أعني: سنة ١٨٨٠ مسيحيَّة أخذ المناظر المقدَّسة بالبلدين المشرَّفتين بواسطة الآلة الفوتوغرافيَّة حيث لم يسبق لأحد غيري، ومنحت بسبب ذلك بميدالية من الذَّهب، ومن الدَّرجة الأولى بمعرض فيينا سنة ١٨٨١م».(٣)

ويقول صادق نفسه عن تجربته في التقاط صورة للمدينة المنوَّرة، مؤكِّدًا ريادته لتصوير الحرم النَّبوي الشَّريف من الدَّاخل:

«أخذت رسم المدينة المنوَّرة بواسطة الآلة الشُّعاعيَّة المسمَّاة بالفوتوغرافيَّة مع

---

(١) وليام فيسي وجليان غرانت: المصدر السابق، ص٨.

(٢) وليام فيسي وجليان غرانت، المصدر السابق، ص١٨.

(٣) محمد صادق باشا: دليل الحج، ص٣.

قبة المقام الشَّريف جاعلًا نقطة منظر المدينة من فوق الطوبخانة حسبما استنسبته؛ لكي يحوز جزءًا من المناخة أيضًا، وأمَّا منظر القبة الشَّريفة فقد أخذته من داخل الحرم بالآلة المذكورة أيضًا، وما سبقني أحد لأخذ هذه الرسومات بهذه الآلة أصلًا».[١]

يذكر بدر الحاج[٢] الذي يُعدُّ من المتخصِّصين في توثيق الصُّور التي قام بالتقاطها صادق أنه استطاع التقاط العديد من الصُّور الشَّمسيَّة في مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة ومنى، من بينها صور للأبنية من الدَّاخل، ولبعض الشَّخصيات، وقد أحصيناها في كتابه (مشعل المحمل) حسب روايته كما يلي:

رسم المسجد المكِّي والكعبة:

«وقد تيسَّر لي في هذه الأيام أخذ رسم المسجد المكِّي والكعبة بالفطوغرافيا، وأخذ رسم مسطَّحه على قدر الإمكان مع كثرة الازدحام وعدم الفراغ».[٣]

رسم مسطَّح الحرم:

«وقد تيسَّر لي رسم مسطَّح الحرم بالبيان، وأخذ رسم منظره من جملة جهات مع ما حوله من البيوت بواسطة آلة الفطوغرافيا ..».[٤]

---

(١) محمد صادق مشعل المحمل، ص١٦.

(٢) بدر الحج: صور من الماضي، ص١٣.

(٣) محمد صادق باشا: مشعل المحمل، ص٣٥.

(٤) محمد صادق باشا: مشعل المحمل، ص٢٨.

صورة الشَّيخ عمر الشيبي الموكَّل بمفتاح بيت الله:

«وقد رسمت بالفطوغرافيا صورة حضرة الشَّيخ عمر المذكور، وأرسلتها إلى حضرته مع هذه الأبيات من قولي:

قلبي يصوِّر شخصكم في كعبة ... بنيت على الرحمات والأنوار
فالقلب مشتعل بنار فراقكم ... أو ليس كل مصوِّر في النار
بيدي رسمت مثالكم في رقعة ... أملًا لقرب الود والتذكار»[١]

وفي موضعٍ آخر يذكر: «وأخذت صورة سعادة شيخ الحرم، وبعض أغوات الحجرة الشَّريفة، وما سبقني أحد لأخذ هذه الرسومات بالفطوغرافيا أصلًا».[٢]

مقبرة مكَّة:

«وقد رسمت منظر هذه المقبرة بالفطوغرافيا..».[٣]

منى:

«وقد تيسَّر لي رسم هذا المسجد، وبقعة منى بالفطوغرافيا، وفي مدة اللَّيل أطلقت المدافع والشنكات....».[٤]

---

(١) محمد صادق باشا: مشعل المحمل، ص٢٨.
(٢) محمد صادق باشا: مشعل المحمل، ص٤٥.
(٣) محمد صادق باشا: مشعل المحمل، ص٢٤.
(٤) محمد صادق باشا: مشعل المحمل، ص٣١.

رسم المدينة المنوَّرة بالفطوغرافيا مع قبة المقام الشَّريف

«وقد تيسَّر لي أخذ خريطة الحرم السطحيَّة بالضبط والتَّفصيل، وأخذت أيضًا رسم المدينة المنوَّرة بالفطوغرافيا مع قبة المقام الشَّريف، والخمس منارات، وقد أخذت منظر القبة الشَّريفة من داخل الحرم...».[١]

أمَّا أهم الصُّور التي قام بالتقاطها في الأراضي الحجازيَّة، واعتمدها مؤلِّفون آخرون فيشير بدر الحاج[٢] إلى الصُّور التي استعملها صبحي صالح في كتابه «الحج إلى مكَّة والمدينة. والصَّادر بالفرنسيَّة في القاهرة سنة ١٨٩٤م»، وقد وقفنا عليه أيضًا في مكتبة الشَّيخ حسن بن محمَّد آل ثاني، بالدَّوحة قطر.

وقد اعتمد عليها محمَّد لبيب البتنوني في وضع رسم نظري للحرم، حين يلمِّح لذلك في مقدِّمة كتابه الشَّهير الرِّحلة الحجازيَّة بقوله:

«وضعت في هذا السَّفر المبارك كثيرًا من الخرط الجغرافيَّة، والرسوم النظريَّة التي وضعتها بنفسي، أو الصُّور الفوطوغرافيَّة التي أخذت بمعرفة بعض من كان في معيَّة الجناب العالي الخديوي، أو سواهم من أفاضل المصوِّرين الذين سبق لهم السَّفر إلى تلكم الأرجاء من مصريين وغيرهم».[٣]

ويصرِّح قائلًا:

---

(١) محمد صادق باشا: مشعل المحمل، ص٤٥.

(٢) بدر الحج: المصدر سابق، ص١٤.

(٣) محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٦.

«ووضعت للحرمين الشَّريفين رسمًا نظريًّا معتمدًا على الأبعاد التي وضعها لها المرحوم محمَّد صادق باشا المصري».[١]

نتائج رحلاته:

* يرجع له الفضل في كشف ذلك الجزء من بلاد العرب، ووصفه قبل أن يكتب ريتشارد بيرتون Richard Burton عن هذا الجزء بستة عشر عامًا، فقد كان له السَّبق في مسح هذا الجزء، ووضع خارطة للطَّريق الذي سلكه، وعدم اعتماده على ما كان يرويه الذين قابلهم كما كان يفعل معظم الرحَّالة الغربيِّين، بل كان يحقِّق كل صغيرة وكبيرة.

* وإليه يرجع الفضل في وصف الجزء الجنوبي للمدينة المنوَّرة، وهي منطقة ظلت مجهولة تمامًا، ولم يرتدها بيرتون نفسه.

* ولأول مرَّة في تاريخ الكشف الجغرافي استعملت آلة التَّصوير الحديثة (الكاميرا) داخل الحرم النَّبوي في المدينة المنوَّرة، وللمرَّة الأولى أخذت قياسات في غاية الدِّقة، ولأوَّل مرَّة أيضًا عُملت خارطة لقبر النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم.

* دوَّن صادق باشا نتائج رحلته في كتيب اشتمل على خارطة للطَّريق الذي سلكه ووصفه وصفًا دقيقًا، وقد طبعت نظارة الحربيَّة هذا الكتاب ونشرته عام ١٨٧٧، «نبذة في استكشاف طريق الأرض الحجازيَّة من الوجه وينبع البحر إلى المدينة النَّبوية وبيان خريطتها العسكريَّة»، ولكن بمرور الأيام أهمل أمره، وصار عمله في عالم النسيان.

---

(١) محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية، مطبعة والدة عباس الأول، القاهرة ١٣٢٧هـ، ص٦.

* يأخذ عليه عبد الرَّحمن زكي وجود بعض العيوب والأخطاء العلميَّة في الخارطة التي وضعها، ولكنه يعتبرها «أقدم وأجود مصور عمل إلى الآن لذلك الجزء».[١]

المناصب التي تقلَّدها:

تنقل بين عدَّة مناصب عسكريَّة ومدنيَّة عديدة، وحاز على عدَّة نياشين، منها: رتبة اللِّواء، كما حصل أيضًا على لقب باشا، واعتبر عضوًا بارزًا في الجمعيَّة الجغرافيَّة، كما عيِّن في منصب أركان حرب ديوان الحربيَّة، وذلك في عهد الخديوي إسماعيل، وعيِّن أمينًا لصرَّة المحمل، وفي عام ١٨٨٢م عيِّن رئيسًا لقلم الرَّسم بمصلحة التَّاريخ، تحت رئاسة الجنرال ستون Stoon رئيس البعثة العسكريَّة الأمريكيَّة.

وفاته:

توفي اللِّواء محمَّد صادق بك، حسب ما ذكره المؤرِّخون في عام ١٩٠٢م، وذلك بعد حياة حافلة بالإنجازات العلميَّة في مجال الكشف الجغرافي، والعمل الحربي خدمة لبلاده، ولأمته الإسلاميَّة التي أهداها سجلًّا وافيًا عن الأماكن المقدَّسة في البلاد الحجازيَّة والطَّريق إليها، ووصفًا صادقًا ودقيقًا لشعائر فريضة الحج.

مؤلفاته:

يقول محمَّد صادق عن مؤلَّفاته في مقدِّمة كتاب «دليل الحج» الذي نشره عام ١٨٩٦م:

---

(١) عبد الرحمن زكي: مصدر سابق، ص١٦١.

«إني استخرت الله بأن أجمع كتبي الثَّلاثة التي ألَّفتها مدَّة سفري إلى الأراضي الحجازيَّة: أحدها جريدة استكشافيَّة من الوجه إلى المدينة المنوَّرة، ومنها إلى ينبع البحر حين كنت مهندسًا بمعيَّة المرحوم سعيد باشا والي مصر، وتبعته في سفره إلى المدينة في رجب سنة ١٢٧٧ هجريَّة، وفي سنة ١٢٩٧هـ تعيَّنت أمينًا للصرَّة، وتوجَّهت مع المحمل في شهر شوال بطريق البر، وعند عودتي ألَّفت كتابًا في كيفيَّة الحج ومعالم الطَّريق، وسمَّيته بمشعل المحمل، والثَّالث بتلك الوظيفة أيضًا بطريق البر في ذي الحجَّة سنة ١٣٠٢هـ، وسمَّيته «كوكب الحج» شارحًا بها سير المحمل من يوم خروجه من مصر المحروسة إلى وصوله مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة وعودته إليها مع رسم خريطة الطَّريق، وبيان المسافة بين المحطَّات بالضبط وذكر نوع أرضها وصلاحيتها، وما بها من آمن ومخوف، والبلاد المار عليها والحج وسكانها وعاداتهم، وتعدادهم حسب الاستكشافات العسكريَّة، وكيفيَّة الحج ومناسكه، ورسم مسطَّح الحرمين الشَّريفين المكي والمدني، فجاءت بفائدة عظيمة للمسافر والمقيم ونفع عميم، فاهتممت وجمعتها في كتاب واحد؛ ليتخذه المطالع والحاج علمًا يهتدي به».[١]

وبالإضافة إلى هذه المؤلَّفات -التي وقفنا عليها في مكتبة الشَّيخ حسن بن محمَّد بن علي آل ثاني بالدَّوحة قطر- له أيضًا كتاب في الرِّحلات بعنوان: نبذة سياحيَّة إلى الأستانة العليَّة[٢] لكننا لم نقف عليها حتى حينه.

المراجع:

- الوليلي، إبراهيم مصطفى: مفاخر الأجيال في سير أعاظم الرِّجال، المطبعة

(١) محمد صادق: دليل الحج، بولاق، ١٨٩٦م، ص٢٤.

(٢) خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٧، ص٣١.

المحموديَّة، القاهرة، ط٢، ١٩٣٤م.

- سامي، أمين باشا: تقويم النِّيل، القاهرة، ج٢، ص٦١١.

- الزَّركلي، خير الدِّين: الأعلام، ج٧، ط٣، القاهرة، ص٣١.

- غربال، شفيق: الموسوعة العربيَّة، القاهرة، ١٩٦٤م، ص١٦٦١.

- زكي، عبد الرَّحمن: أعلام الجيش والبحريَّة في مصر أثناء القرن التَّاسع عشر، الجزء الأوَّل، مطبعة الرِّسالة، القاهرة، ١٩٤٧م، ص١٦٠ - ١٦٢.

- طوسون، عمر: البعثات العلميَّة في عهد محمَّد علي، ثم في عهدي عبَّاس الأوَّل وسعيد، مطبعة صلاح الدِّين بالإسكندريَّة، ١٩٣٤م، ص٣٠٠ - ٣٠٣.

- البتنوني، محمَّد لبيب: الرِّحلة الحجازيَّة، مطبعة والدة عبَّاس الأوَّل، القاهرة ١٣٢٧هـ، ص٦.

- وليام فيسي وجليان غرانت: المملكة العربيَّة السعوديَّة في عيون أوائل المصوِّرين، مركز الدراسات العربيَّة، لندن، ١٩٩٦م.